من اعلام النقد الروسي

بقلم الدكتور جليل كمال الدين
قسم اللغات الاوربية

ان هذا البحث هو محاولة لاستجلاء اوجه نشاط وابداع الناقد ـ المفكر الروسي الواقعي المشهور : فيساريون بيلينسكي « مفلسف ونظرى الواقعية الانتقادية في روسيا ، وذلك عبر ستة فصول متتابعة · يتحدث الفصل الاول عن حياة بيلينسكى ونشاطه ، اما الفصل الثاني فيتحدث عن نظرات بيلينسى الاستاتيكية (الجمالية) وخصوصية هذه النظرات وتفردها وارتباطها بعمله النقدى · ويتابع الفصل الثالث ، على نحو مفصل نسبيا ، تجسيد مبادىء بيلينسكي الاستاتكية في نقده الادبي ، وخصوصا المكرس لرصد ومراجعة وتقييم وتقويم الاغمال الادبية المعاصرة له في القرن التاسع عشر (لاشهر كتاب العصر : بوشكين وليرمنتوف وغوغول) · ويركز الفصل الرابع على نقد بيلينسكى في أربعينات القرن التاسع عشر ويبحث الفصل الخامس نقد بيلينسكى للادب العالمى المعاصر له (وخصوصا كتاب اوربا الغربية في النصف الاول من القرن التاسع عشر) · ويختتم البحث بفصل قصير عن مغزى نقد بيلينسكى واهميته بالنسبة للعلم الاستاتيكى وللنقد الادبي الواقعى بما فيه نقدنا الادبي العربي المعاصر ·

اعلام النقد الادبي الروسي في القرن التاسع عشر :

فيساريون بيلينسكي

ان فيساريون غريغوروفيتش هو دمقراطي ثوري عظيم ، وناقد ادبي وفيلسوف مشهور في القرن التاسع عشر ·

---

١ ـ حياته ونشاطه

ولد بيلينسكي في ١٣ حزيران ١٨١١ ، في مدينة سغير بورغ ، حيث كان ابوه يعمل طبيبا في الاسطول · وقد تصرمت طفولة بيلينسكي في مدينة

تشيمباره ـ وهي التي تدعى الآن باسمه (بيلينسكي) ـ من اعمال محافظة بنزه • ومنذ ايام الطفولة عانى بيلينسكي العوز الذى رافقه طوال حياته • وبعد الدراسة في مدرسة الناحية (١٨٢٢-١٨٢٥) والمدرسة الثانوية (١٨٢٥-١٨٢٩) التحق بيلينسكي بجامعة موسكو (قسم الاداب) في عام ١٨٢٩ • وانشأ بيلينسكي في الجامعة حلقة فلسفية سياسية للتلامذة كان هو قطبها ومحورها ، وكانت تدعى « الجمعية الادبية للغرفة ١١ » • وكان اعضاء الحلقة ، وقد تشبعوا بالافكار التحررية ، يناقشون بحرارة المسائل االاجتماعية ـ السياسية والادبية • وفي عام ١٨٣٢ ، فصل بيلينسكي من الجامعة بسبب مسرحيته « دميتري كالنين » ، التي عرض فيها للنقد الحاد نظام القنانة وطالب بتدميره •

وانطلق بيلينسكي منذ عام ١٨٣٣ ناقداً ادبياً في المجلات • ومنذ هذا العام ، ايضا ، اضحى محررا دائما في مجلة (تلسكوب) ، التى كانت تصدر جريدة «مولفا» بصفة ملحق لها ، وقد اغلقنا معا على يد الحكومة القيصرية في عام ١٩٣٦ • وفي عام ١٨٣٤ نشرت مقالته الشهيرة « احلام ادبية » في جريدة «مولفا» • وحظت مقالاته النقدية الاولى بتقييم عال من قبل بوشكين والكتاب الروس الاخرين • وفي عام ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ حرر بيلينسكي مجلة « المراقب الروسي » • وفي نهاية ١٨٣٩ ، ارتحل الى بطرسبورغ حيث والى النقد الادبي في مجلة « مذكرات وطنية » • وبعد ان افترق عن ناشر « مذكرات وطنية » ، آ • آ • كرايفسكي ، الذى استغل الناقد بقسوة ، انتقل بيلينسكي في عام ١٨٤٦ الى مجلة « المعاصر » التي كان نكراسوف يحررها ، وظل يعمل هناك حتى نهاية حياته • وكانت سنوات العمل في «مذكرات وطنية» و «المعاصر» انضج واخصب فترة في حياة بيلينسكي • وفي الاربعينات كان بيلينسكي قد عقد عرى صداقة وطيدة مع آ•اى• غيرتسن ، فقد كانت توحدهما المعتقدات الثورية ، والعداء للقنانة ، والنضال ضد الايديولوجية الرجعية • وكان بيلينسكي مرتبطا ، على نحو وثيق ، برجال الثقافة الروسية البارزين في الاربعينات ، ـ اي•س• تورغينيف ، و أ • س • شيبكين ، و آ • ف • كولتسوف ، وقد مارس تأثير كبيرا على الابداع الادبي لنكراسوف ، وم•ى• سالتيكوف ـ شدرين ، وت •

س • شيفجنكو ، والكتّاب الديمقراطيين الآخرين •

وفي ٣ تموز ١٨٤٧ ، وقبل امد قصير من وفاته ، كتب بيلينسكي من زالتسبرون (حيث كان يقيم في الخارج للعلاج) ، رسالته الشهيرة الى غوغول ، التي كانت بمثابة وصيته السياسية • وكنت رسالة بيلينسكي الى غوغول ، كما كتب لينين في عام ١٩١٤ ، « ••• احد افضل نتاجات الكتابة الدمقراطية التي لم تخضع للرقابة ، والتي ظلت تحتفظ بأهميتها الحيوية حتى يومنا هذا » (المؤلفات ، الطبعة الرابعة ، مج ٢٠ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤) •

وكانت الحكومة القيصرية عازمة على تسوية حسابها مع بيلينسكي ، وليس سوى المرض العضال ووفاة بيلينسكي ما أعاق الجندرمة من زجه في زنزانة قلعة بتروبافلسكايا • • وقد عانى بيلينسكي من الفقر المدقع ، وتعرض الى ملاحقات السلطة والرقابة • وانفرط عقد حياة بيلينسكي مبكرا • فقد توفي بالسل الرئوي في ٧ حزيران ١٨٤٨ في بطرسبورغ ، ودفن في مقبرة فولكوف ، في القطاع المخصص « لقبور الادباء » •

ان نشاط بيلينسكي الذى لعب دورا كبيرا في النضال التحريرى للشعب الروسي ضد القيصرية والقنانة ، يعود الى الفترة مابين ثلاثينات ـ اربعينات القرن التاسع عشر • وفي هذا الوقت ، وفي ظل أزمة النظام الاقطاعي ـ القناني السائد ، وتطور العلاقات الرأسمالية المتسارع ، تعاظم احتجاج الفلاحين العفوى وسخطهم على أنظمة القنانة ، واشتد صراع الفلاحين الطبقي ضد الاقطاعيين ، وتطورت الحركة التحررية ضد القيصرية والقنانة • والى جانب الثوار من النبلاء ، الذين كانوا يتزعمون الحركة التحررية وقتذاك ، فان دوراً متزايداً في هذه الحركة ، وخصوصا في الاربعينات ، ابتدأ يلعبه الثوار من ابناء الطبقات الاخرى •

وقد انطلق بيلينسكي في الثلاثينات خصماً للمعسكر الرجعي ـ القناني • وتحت تأثير الصراع الطبقي المشتد في روسيا ، والاحداث الثورية في اوربا الغربية ، جرى في الاربعينات تحديد الحدود الفاصلة بين المعسكر الدمقراطي الثوري بزعامة بيلينسكي وغيرتسن ، والمعسكر الليبرالى (كافلين ، وكورش) وآينكوف ، وبوتكين وغيرهم) • وكان الدمقراطي الثوري بيلينسكي قد اضحى

ايديولوجي الفلاحين الاقنان ، المناضلين من اجل القضاء التام على نظام القنانة •

ان الدمقراطيين الثوريين الروس ، بزعامة بيلينسكى ، قد دافعوا عن مصالح الجماهير الشعبية ، وبحثوا عن الطرق والوسائل لتدمير القنانة ، وتحرير الفلاحين ، وسعوا من اجل صياغة النظرية الثورية السليمة ، التى كانت ستساعد في الدلالة على سبل تغيير الواقع المحيط بهم • وقد قيّم لنين تقييما عاليا نضال بيلينسكى من اجل وضع نظرية ثورية طليعية ، مسميا بيلنسكى ، سوية مع غيرتسن وتشيرنيشيفسكي ، أسلاف الاشتراكيين الدمقراطيين الروس •

٢ ـ استاتيك بيلينسكي

كانت مأثرة بيلينسكي الكبيرة هي ابداعه الاستاتيك الدمقراطي الثورى الجديد ، ونشاطه النقدى الادبي الباهر • ان الاستاتيك الروسي الدمقراطي ـ الثورى ، الذى أبدع اسسه بيلينسكي وصاغه فيما بعد تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف ، يمثل مرحلة رفيعة في تطور الفكر الاستاتيكي قبل الواقعية الاشتراكية • وقد تطور استاتيك بيلينسكي ونقده الادبى بارتباط وثيق مع تطور معتقداته • ففى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، ادىّ بيلينسكى ، بوقوفه مواقف التنويرية والمثالية الفلسفية ، الضريبة للمفهوم المثالى للفن وعلاقته بالواقع • ففى هذه الفترة اعتبر بيلينسكي ان الفن ينبغي ان يكون حرا ومستقلا عن المصالح «المعاصرة والآنية» للمجتمع ، ومظهرا للوعى الذاتي الابداعي للفنان ، الذى كان مزعوما ، ان « روح الشعب » تجد تجسيدها فيه • وبين بيلينسكى ان «روح الشعب» (التى كان يعنى بها وجهة نظره في العالم ، ومصالح الجماهير الشعبية الواسعة) ، كانت تتميز جذريا عن معتقدات ما يدعى بالمجتمع المتعلم الذى كانت مصالحه وحياته الروحية منفصلة كليا عن الشعب ، وغريبة عليه ، ومتناقضة معه • ومع ذلك ، فان بيلينسكى انطلق في الثلاثينات ضد الاتجاه الرجعي الانحطاطي في الادب ، الذى بشر به المدافعون عن الحكم المطلق والارثوذكسية ، الذين كانوا يحاولون ان يخضعوا الادب والفن لانفسهم ، ولكنه صنع ، من هنا ، استنتاجا خاطئا يقول ان الادب والفن يستطيعان ان ينعزلا ، على حدة ، عن المصالح الاجتماعية ، المزعوم انها تقلّص موضوعية وصدق الفن • وعلى اية

حال ، فمنذ الثلاثينات ، كان قد ظهر في نظرات بيلينسكي الاستاتيكية والنقدية الادبيـــة الاتجاه الواقعي ، المنحدر من الموقف العـدائي للناقد تجـاه نظـام القنانة ، وتعاطفه مع الجماهير الشعبية المضطهدة • وانطلق بيلينسكى يناضل من اجل ابداع ادب شعبي حقيقي ، تنعكس فيه حياة الشعب ومصالحـه ، ويستهدى بمبدأ الواقعية في الادب والفن • واقتضاه ذلك كفاحاً متوصلا ضد ادب المواعظ الرجعية ، المفصول عن الحياة ، والمشبع بالروماتتكية الصوفية •

وقد اعتبر بيلينسكى الفن تصويرا ابداعيا للواقع غير ان مفهوم بيلينسكى للواقع في الثلاثينيات كان لا يزال مثاليا • واعتبر بيلينسكي «واقعا» الطبيعة والحياة الاجتماعية ، التي تظهر فيها ، كما افترض هو آنذاك ، الفكرة المطلقة • امـا في الاربعينات ، فان بيلينسكي ، وقد اضحى دمقراطيا ثوريا ، بات يرى رسالة الفن ليس في التصوير الابداعي للواقع فقط ، وانما ، قبل كل شيء ، في الاسهـــام الفعال في تغيير الواقع لخدمة المصالح الاجتماعية • «ان سلب الفن حق خدمـة المصالح الاجتماعية ، ـ اكد بيلينسكى ، ـ يعنى لارفعه وانما الغض منه ، وذلك لان هذا يعنى تجريده من القوة الحية ذاتها ، اى الافكار وجعله موضوعا للتمتع النزوى ، ولعبة للكسالى المتعطلين »[1] •

ان الفن ، وفقا لرأى بيلينسكى ، ينبغى ان يكون تعبيرا عن حياة الشعب ، وينبغي ان تجد متطلبات الحياة المعاصرة الجذرية ، الحيوية ، انعكاسها في الفن •

وفي الاربعينات فهم بيلينسكى المعنى السياسي الرجعى للتبشير بـ «الفـــن الخالص » الذى قام به المثاليون ، ايديولوجيو الروماتيكية في الفن • ومتطلبا من الفن خدمة الشعب عرض بيلينسكي للنقد نظرية (الفن للفن) ، وبين ان مثل هذا الفن ، «لم يوجد قط ايما مكان»[2] •

وابتداء من ١٨٤٤-١٨٤٥ ، فان بيلينسكي بنى نظريته الاستاتيكية عـــلى اساس المادية الفلسفية • وفي هذا الوقت اضاف بيلينسكي الى تعريف الفن ، كتصوير ابداعي للواقع ، محتوى ماديا جديدا • فالان ـ كتب هو في الاستعراض

---

(١) ف • بيلينسكي ، المؤلفات الكاملة ، مج ٣ ، ١٩٤٨ ، ص ٧٩٧ •
(٢) ذات المصدر ، ص ٧٩٤

السنوى للادب الروسى عام ١٨٤٦ – (فان مفهوم «الواقع» جديد تماما)[٣] . ان الواقع – هو العالم الحقيقي المحسوس ، الذى لم يبدعه احد ، والعامل وفقا لقوانينه الداخلية الخاصة . وهذا الواقع ، كما يقول بيلينسكي ، هو اساس وموضوع ومادة الفن . ان مقولة بيلينسكي المادية «الحياة اعلى دائما من الفن» باتت مبدأ اساسيا لاستاتيكه ونقده الادبي . وعلى النقيض من الاستاتيك المثالي ، الذى عارض الفن بالعلم ، فان بيلينسكي رأى الاختلاف بينهما في الشكل فقط، في اسلوب معالجة المحتوى المعين «للواقع» . ان الفيلسوف – كتب هو – يستخدم الاقيسة والنتائج المنطقية ، اما الشاعر فيلجأ الى الصور الفنية واللوحات ، ولكنهما يقولان ذات الشيء الواحد . أن عالم الاقتصاد السياسى ، متسلحا بارقام الاحصاء ، يثبت ، مؤثرا على عقل قرائه او سامعيه ، ان وضع طبقة ما في المجتمع قد تحسن او تردى كثيرا بنتيجة هذه الاسباب او تلك . اما الشاعر ، فمتسلحا بالتصوير الحي الالق للواقع ، يبين في لوحة صادقة ، معتمدا على خيال قرائه ، ان وضع طبقة ما في المجتمع قد تحسن حقا ، او ساء كثيرا لهذه الاسباب او تلك . ان احدهما يثبت ، والاخر يعرض ، وكلاهما يقنع ، غير ان احدهما يقنع بالحجج المنطقية والاخر باللوحات . وهنا فان العلم والفن ضروريان ، على نحو متكافىء ، فلا يستطيع العلم ان يحل محل الفن ، ولا الفن محل العلم[٤] .

وقد استخدم بيلينسكي ، في حقل الاستاتيك ، اسلوبه الديالكتيكي ، في التفكير. ان الفن كذلك مخضع لقانون التطور ، مثلما الطبيعة والحياة الاجتماعية. ويرى بيلينسكي ان الاستاتيك ينبغي ان ينظر الى الفن في تطوره التاريخي ، وان يلحم في نفسه ، عضويا نظرية وتاريخ الفن ، وبمناقضة هيغل ، الذى رأى مثال الفن في الماضي ، بعيدا وراء العصر الحاضر ، فان بيلينسكي قد وجه استاتيكه نحو المستقبل ، وآمن بازدهار الفن في المستقبل ، حين تتحرر البشرية من «القيود الشائنة للواقع غير المعقول» . وعلى اية حال ، فان بيلينسكي ، وقد بقي مثاليا في مفهوم التاريخ ، لم يستطع ان ينهض الى المفهوم العلمي للفن ، كشكل

---

(٣) ذات المصدر ، ص ٦٥٧ .

(٤) ف.ف. بيلينسكي ، المؤلفات الفلسفية المختارة ، مج (٢) ١٩٤٨، ص٤٥٣.

للوعي الاجتماعي ، او ان يكشف الدور الحاسم للظروف المادية لحياة المجتمع في تطـــور الفن .

ان اهم مبادىء استاتيك بيلينسكي الدمقراطي ـ الثورى هي امـــانة الفن للواقع ، وفكرية وشعبية الفن الرفيعة . ووفقا لرأى بيلينسكي ، فان « تصـوير الواقع بكامل حقيقته » اى الواقعية في نتاجات الادب والفن ، ينحصر قبل كـــل شىء ، في ان هذه النتاجات ينبغي أن تصور الواقع بامانة ، وان تكشف ملامحـه الاشد جوهرية ونموذجية ، وليس الاتفاقية او العابرة ، والتعبير عن ظواهـــر الحياة على نحو واف وشامل .

وقد ربط بيلينسكي مطلب الامانة للواقع بتأكيد قوة واهميـــة الاتجـــاه الفكري الطليعي في الفن . «في لوحات الشاعر ينبغي ان تكون فكرة ـ اكد هو ـ والانطباع الذى تنتجه ينبغي ان يؤثر على عقل القارىء ، ينبغي ان يمنح هـــذا الاتجاه او ذاك لنظرته الى الجوانب المعروفة للحياة »[٥] ووفقا لما يقوله بيلينسكي فان النزعة الفكرية التقدمية تضيف قوة كبيرة لابداع الفنان ، فيما يقتل الاتجاه الفكرى الزائف الموهبة ، ويقلص القيمة الفنية لنتاجات الفن . « ان المعرفـــة المبتناة على الرمل ليست ابدية ، كتب بيلينسكي ـ والشعر الذى يعبر عن الحالة الزائفة لجيل معين يموت مع ذلك الجيل ، وذلك لانه بالنسبة للاجيال القادمـة لا يحمل ايما فائدة جوهرية في مضمونه . وفضلا عن ذلك ، فانه وقد غـــدا لسانا للاتجاه الزائف ، فانه يفقد تلك القوة التي يمكن ان تكسبها اياه موهبـــة الشاعر »[٦] واعتبر بيلينسكي مثالا جليا لسقوط الموهبة الفنية بنتيجة النزعـــة الفكرية الزائفة كتاب « مواضع مختارة من المراسلات مع الاصدقاء » لغوغول . « اية حقيقة عظيمة هذه التي تفيد انه حين يكون الانسان مكرسا للزيف كليـة فانه آنذاك يهجره الذكاء والموهبة ـ كتب بيلينسكي بمرارة الى غوغول ـ ترى لو لم يكن اسمكم مثبتا على كتابكم ، افكان احدهم يعتقد ان هذه الضجة المبالغ فيها للكلمات والعبارات المتحشفة هي نتاج لصاحب «المفتش العام» و « الارواح

---

(٥) بيلينسكى ، المؤلفات الكاملة ، مج ٣ ١٩٤٨ ، ص ٨٠٣ـ٨٠٤ .
(٦) ذات المصدر ، مج ٢ ، ص ٤٣٣ .

الميتـــة »[٧] ؟

وقد اثبت بيلينسكي ان من السهل ان تتفق حرية الابداع مع خدمـــة الحياة المعاصرة : « من اجل ذلك ـ كتب هو ـ لا ينبغي اكراه النفس على الكتابة في الموضوعات ولا قسر الخيال قسرا ، فلاجل ذلك ينبغي فقط ان يـــكون المرء مواطنا ، ابن مجتمعه وعصره حقا ، واستيعاب مصالحه ، وملاحمة طموحـــاته الخاصة بطموحات المجتمع ، ولاجل ذلك يلزم التعاطف ، والحب ، والاحساس العملي السليم بالحقيقة ، الذى لا يفصل المعتقـــد عن القضيـــة ، والابداع عن الحيـــاة »[٨] .

ومنتقدا نظرية «الفن الخالص» التي كان يدعو لها الكتاب المتحدرون مـــن طبقة النبلاء المحافظين (ب.آ.فيازيمسكى ، وف.آ.جوكوفســـكي ، وب.آ. بليتنيف) والكتاب النبلاء البرجوازيون (بوتكين ، نيكيتينكو وغيرهما) فـــأن بيلينسكي اظهر تهافت هذه النظرية وجوهرها الرجعي . وقد اثبت ان انصـــار نظرية «الفن الخالص» الذين رأوا في الفن تعبيرا عن مجرد طموح الانسان نحو الرائع ، انما يحددون ، على نحو ميتافيزيكي ، موضوع الفن ، ويفصلونه عـــن الجوانب الاخرى للحياة الاجتماعية للانسان . واوضح بيلينسكي ان الاجتهادات حول «الفن الخالص» انما هي ستار يغطي طموح قوى المجتمع الرجعية من اجل تحويل الفن عن المشاركة في النضال من اجل اعادة بناء العالم ، وكذلك فـــي سبيل مصالحة الناس مع الانظمة الاجتماعية الرجعية . وبوقوف بيلينسكي مـــن اجل فكرية الفن والادب ، فانه كان يستهدف وضع الفن والادب في خدمـــة قضية الفلاحين ، وجعلهما سلاحا فعالا للحركة الدمقراطية الثورية .

وفي النضال من اجل واقعية الفن وفكريته ، صاغ بيلينسكي مبدأ الشعبيـــة في الاستاتيك واكد على ضرورة ان يعكس كل نتاج فني الاصالة القومية للشعب الذى انتجه . « ان الشاعر العظيم يمكن ان يظهر على الاساس القومى فقط »[٩] كتب بيلينسكي . واشار بيلينسكي الى ان القومية تشكل احدى ارفع القيم فـــي

---

(٧) ذات المصدر ، مج ٢ ، ص ٧١٣ ـ ٧١٤ .
(٨) ذات المصدر ، مج ٢ ، ص ٣٦٣ .
(٩) ذات المصدر ، ص ٢٤٢ .

النتاجات الشعرية[١٠] وكلما كان فن الشعب اكثر تفردا واصالة ، كلما تعاظمت قيمة الاضافة التي يقدمها هذا الشعب الى التطور العام لثقافة البشرية • وقد فهم بيلينسكي الشعبية في الادب تصويرا امينا لحياة الشعب ، وعكسا للطابع القومي ، و «لعقلية» و «طراز تفكير» الشعب • وكان مفهوم «الشعبية» لدى بيلينسكي في الاربعينات يحمل طابعا دمقراطيا ثوريا • وعلى النقيض من ايديولوجيي «الشعبية الرسمية» والتعصب للسلافية ، الذين كانوا يعتبرون الطابع القومي شيئا ما لا يتغير ، معطى مرة والى الابد ، فان بيلينسكي كان خصما لجعل العهد الغابر وتقاليده والاشكال الآفلة للحياة الشعبية امرا مثاليا • وقد اعتبر شعبيا ذلك الفن الذى يخدم مصالح الجماهير الشعبية الواسعة وطبقات الكادحين • ووقف بيلينسكي ضد التجاهل الرسمي «للموجيك» الروسي ، واكد بقوة ، ضرورة تصوير الادب لحياة الشعب البسيط •

٣ ـ نقده الادبي

لقد وجدت مبادىء بيلينسكي الاستاتيكية تجسيدها في نقده الادبي •

ففي ثلاثينات القرن التاسع عشر طرحت مسيرة الحياة الاجتماعية نفسها وتطور الادب الروسي كذلك امام النقد الادبي ، مهاما كبيرة وجديدة • وكان النقد الادبي مدعوا لايضاح علاقة الادب بالمسائل الملحة للواقع الروسي ، وبالدرجة الاولى بالمسألة الاساسية ـ القضاء على القنانة الاقطاعية ، فكان على النقد الادبي ان يحدد دور الادب في الحركة التحررية ضد القيصرية والقنانة • اما النقد الادبي اللبرالي في ثلاثينات القرن التاسع عشر (بوليفوى ، فيازيمسكي) ، ناهيك القول عن النقد الرجعي السافر لشيفريوف وسنكوفسكي وكريج والاخرين ، فلم يفهم متطلبات الحياة والادب ، وكان غريبا على النضال التحرري للشعب •

وفي الادب الروسي لهذه الحقبة من الزمن جرت عمليات في غاية الاهمية: فقد ضيقت الواقعية الخناق على الرومانتيكية ، وقفز النثر الى المكان الاساس في

---

(١٠) ذات المصدر ، ص ٤٩٩

الادب ، وتبلور الاتجاه الفني الجديد ـ الواقعية الانتقادية ، المرتبطة ، قبل كل شيء ، باسم غوغول • وكان اسلاف بيلينسكي في النقـــد الادبي ـ بوليفوي ، ونادیجدين والاخرون ، يقفون في مواقع لبرالية او محافظة • فقد فسروا انتقال بوشكين من الرومانتيكية الى الواقعية «بهبوط موهبته» • اما واقعيـــة غوغول الانتقادية الوليدة فكانت اعسر فهما عليهم ، فقد ناقضت كافة تصوراتهم عـــن الفن • وقد وقف بيلينسكي نقده ونشاطه على النضال ضد نظام القنانة ، ومـــن اجل تحرير الشخصية الانسانية وكرامتها ، وكان هذا النضال دافعا محددا لـكل نقد بيلينسكي الادبي • ومع ان المفهوم الفلسفي المثالي في ثلاثينات القرن ، قـد حدد من تصور بيلينسكي لجوهر ومهام الادب الاجتماعية ـ السياسية ، الا انه ، مع ذلك ، ناضل من اجل شعبية الادب ، وضـــد صيرورته محاكـــاة وتزلفا للاجانب ، وكذلك ضد النظر نظرة مثالية الى كل ما هو عتيق ومتخلف في حياة روسيا • وقد اعلن بيلينسكي الحرب على الرومانتيكية و : «الوعظ الاخلاقي» في الادب والنقد الادبي ، واطرى غاية الاطراء ابداعات بوشكين وغوغول •

لقد كانت اهم اعمال بيلينسكي في النقد الادبي ، في الثلاثينات ، مقـــالاته المشهورة التالية : «احلام ادبية» (١٨٣٤) ، «عن القصة الروسية وقصص السيد غوغول» (١٨٣٥) ، «اشعار فلادمير بينيد يكتوف» (١٨٣٥)،«حول نقد «مراقب روسي» وآرائه الادبية» (١٨٣٦) ، « هاملت ـ دراما شكسبير • موجـالوف في دور هاملت » (١٨٣٨) ، وقد انضافت الى هذه المقالات نقدات ومراجعات نقـدية عديدة ، احتوت افكارا عميقة عن الفن ، استثنائية من حيث دقـــة تفهم وتقييم النتاجات الادبيـــة •

وقد انطلق بيلينسكي في مقالاته النقدية الادبية ومراجعاته مفكرا ناقـــدا كبيرا ، وشارحا فلسفيا لعمليات الحياة الاجتماعية والظواهر الادبية • ان ايمـــا ذاتية اعتباطية في الاحكام النقدية كانت غريبة ، كليا على بيلينسكي • وقد جرى التعبير عن هذا الملمح بمنتهى الجلاء في مقالة «احلام ادبية» • ففي هذا العمـل المهم الاول من اعمال بيلينسكي النقدية كان ثمة تاكيد له دلالته البالغة عـــلى العلاقة الوثيقة بين الشعبية والواقعية • ان تطور الادب الروسي واصالته القوميـة لا تنفصمان ، بالنسبة لبيلينسكي ،عن دمقراطيته ، واقترابه من الشعب ، وتصفية

ذلك الانفصام بين «المجتمع» والشعب ، الذى انعكس في الادب بآثاره المدمرة • وقد طرح بيلينسكي «في احلام ادبية» مهمة ابداع ادب شعبي اصيل • ان المبدئية العالية في احكام بيلينسكي النقدية واغتنائها بالمحتوى الفكرى ، واستقلالها ، وصراحتها الرفيعة ، وحبها العارم للكلمة الشعبية ، والحماس الحمي ••• ان كل هذا قد جعل مقالة «احلام ادبية» حدثا اجتماعيا كبيرا • وقد فهم افضل مثقفي العصر ، وفي مقدمتهم بوشكين ، انه قد ظهر ، اخيرا وفي شخص بيلينسكي بالذات ، الناقد الحقيقي الذى انتظروه •

اما في مقالته «عن القصة الروسية وقصص السيد غوغول» (١٨٣٥) ، فان بيلينسكي ، وقد اعترف بغوغول كاتبا عبقريا ، أعلنه « شاعر الحياة الواقعية » وحدد اسس ذلك المفهوم للواقعية ، الذى كان ابداعه يشكل مأثرة بيلينسكي الكبيرة • وعلى نقيض النظرات المقبولة عموما في ذلك الوقت ، فان بيلينسكي قد صرح على نحو حاسم ، واثبت تلك الفكرة التي تقول بان مهمة «مهمة الفن الحقيقي » ـ «استخلاص شعر الحياة من نثر الحياة وهز الارواح بالتصوير الامين لهذه الحياة »[١١] وفي هذه المقالة تجلى التعبير التام عن التناول الديالكتيكي التاريخي لظواهر الأدب ، وهو الامر المميز الذى كان يضون لبيلينسكي الشاب• وقد وضع بيلينسكي غوغول في مصاف الرعيل الادبي المبتدىء بكارامزين ، واوضح مكانته في الادب «كشاعر اكثر اجتماعية» وبالتالي اقوى شاعرية «بروح العصر » •

وفي مقالته «حول نقد» مراقب روسي «وآرائه الادبية» (١٨٣٦) ، وقف بيلينسي ضد الاستاتيك الرجعي الرسمي ، ضد اولئك الذين يسعون من اجل اخضاع الادب لسياسة «الحكم المطلق ، الارثوذكسية » • وبالرغم من انه في ذلك الوقت كان لا يزال في مواقف مثالية ، غير ان الاتجاهات الدمقراطية كانت تتجلى في تقييمه الاستاتيكية ، وفي ذات مفهوم الفنية • «ان الفنية ـ يقول الناقد ـ في متناول اناس كافة الطبقات ، وكافة الاوضاع ، اذا ما توفر العقل والعاطفة ، اما ادب النخبة اللاهي «فيعود الى الطبقة السلالية»[١٢] • ان هذا الادب قد فرضه

---

(١١) بيلينسكي ، المؤلفات الكاملة ، مج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ١٣١ •
(١٢) ذات المصدر ، ص ٢٧٢

النقد الرجعي بزعامة شيفيريوف ، في محاولة تحويل الادب الى آلة طيعة للطبقات السائدة • وقد اعتبر شيفيريوف انه لا توجد ايما افكار لا لدى بوشكين ولا لدى غريبويديف ، فيما وجد هذه الافكار لدى بنديكتوف والشعراء الرومانتيكيين الاخرين المنسيين في مطاوي التاريخ •

وفي المقالة عن اشعار بنيد يكتوف (١٨٣٥) ، كما في عرضه النقدى لمؤلفات مارلينسكي المكتوب بعد ذلك ، بخمسة اعوام ، فان بيلينسكي فضح الفنية الموهومة التي تفتقد ، في الجوهر ، الفكر الابداعي ، والتي تبهر القارىء الغر بالتأثيرات الخارجية واللعب بالكلمات • ان مقالات بيلينسكي عن بنيد يكتوف ومارلينسكي تحتفظ ، حتى الآن ، باهميتها في تربية الذوق الاستاتيكي ، وفي النضال ضد كافة التشويهات الشكلية في الفن •

وفي فترة «مهادنة» الواقع ، سمح بيلينسكي باخطاء جدية في النقد الادبي ايضا • وفي مقالته عن «ويل من العقل» لغريبويديف ، فان بيلينسكي ادان هذا الاثر الفني البارز بسبب غياب «الموضوعية» ، واجراء اساسه الاحتجاجي الذى وجد تعبيرا له في حوارات تشاتسكي • وقد اسف بيلينسكي ، فيما بعد ، لهذا التقييم الخاطل (يتجلى ذلك في رسالته الى باكونين في ١٠-١١ كانون الاول ١٨٤٠) ، بل وصححه ايضا مسميا هذا الاثر «ابداعا رفيعا جدا لانسان عبقرى (له) اهميته الكبيرة سواء بالنسبة لادبنا ام بالنسبة لمجتمعنا » • وقد سمح بيلينسكي بالاخطاء في تقييم مؤلفات آدم ميتسكيفيج ، وتاراس شيفجنكو •

٤ ـ نقده الادبي في الاربعينات

ان انتقال بيلينسكي ، في بداية الاربعينات ، الى مواقع الدمقراطية الثورية قد رمز الى مرحلة جديدة في نشاطه النقدى الادبي • وفي تقييم ظواهر الادب الروسي ، وتحليل تطوره التاريخي ، جعل بيلينسكي ينطلق ، الآن ، من مهام النضال الحاسم ضد «الواقع الشائن» باسم اعادة البناء الجذرى للمجتمع ، لصالح الجماهير الشعبية • وقد شجب بيلينسكي الشعر المفرط في التجارب الذاتية ، ووقف بحزم ضد ما يدعى بالفن الخالص • فمن دون «تعاطف حار ، وثيق

للغاية ، مع العالم المعاصر » ، من دون التجاوب الحي للشاعر مع المشاكل الكبرى للعصر ، لا توجد ـ كما اكد بيلينسكي ـ روح باعثة للحياة في النتاج الشعرى ، ولا ذلك التكامل الذى يعتبر بالنسبة للناقد العرض الاهم للفنية • ان ممثلي الشعر الاحدث لا يستطيعون التحدد بتمجيد «الجمال الخالص» ، فنهم بذات القدر «فلاسفة ونقاد ...» ، اى نقاد الحياة المعاصرة لهم •

ولم يقتصر بيلينسكي في مقالاته النقدية ، في الاربعينات ، على مطالب التصوير التاريخي الامين للواقع • فقد جعل بيلينسكي يطالب الفنان الآن «بالذاتية» ، التي هي ايضا بعيدة عن الانعزال والتقوقع في مغاور الذات ، وذلك كدفاع من جانب بيلينسكي عن حقوق الشخصية ـ عن تفردها • ان الذاتية ـ في مفهوم بيلينسكي ـ انما هي انعكاس لمطالب المجتمع في عقائد الفرد الطليعي ، وموقفه الثابت في النضال ضد الماضى ، ومن اجل انتصار الجديد ، وانما هي تعبير عن المسيرة الموضوعية للاشياء ، محدد بقوانين التطور الاجتماعي • واذا كان النضال من اجل تحرير الشعب هو اهم ظواهر الواقع ، فان الفنان لا يستطيع الانعزال عن هذا النضال • «في الطبيعة البشرية المعافاة والزاخرة ، كتب بيلينسكي في مقالته «اشعار ليرمنتوف» (١٨٤١) ، تجثم مصائر الوطن شديدة الوطأة على القلب ، ان ايما فرد شهم يعي ، عميقا ، قرابته الدموية وانشداده الصميمي بالوطن »[١٣] • ويعتبر بيلينسكي ان « فائض العنصر الداخلي ، الذاتي ، انما هو عرض الانسانية • لا تخشوا هذا الاتجاه « انه لا يخدعكم ، ولا يقودكم الى الضلال • ان الشاعر الكبير ، متحدثا عن نفسه ، عن اناه ، انما يتحدث عن العام ، عن الانسانية ، وذلك لانه في طبيعته يرسخ كل شيء مما تعيش به الانسانية »[١٤] •

والى بداية الاربعينات تعود سلسلة مقالات بيلينسكي عن الشعر الشعبي • وفي المقالات الاربع ، المكتوبة عام ١٨٤١ ، درس هو الشعر الشعبي في علاقاته بالحياة الروسية ، وبتاريخ الشعب الروسي ، وفهمه على انه انعكاس للتناقضات

---

(١٣) بيلينسكي ، المؤلفات الكاملة ، مج ١ ، ص ٦٣٩ •
(١٤) ذات المصدر ، ص ٦٧٠ ـ ٦٧١ •

بين « الرأى العام المتطور بشكل غير سليم » ومصالح الشعب وحاجاته ومشاعره •

وفي عام ١٨٤٣ ، كان الناقد الكبير قد ابتدأ مسلسل مقالاته المشهورة عن بوشكين (« تآليف الكسندر بوشكين » ، المقالات ١-١١ ، ١٨٤٣-١٨٤٦) • وفي المقالات عن بوشكين والاعمال النقدية الادبية الاخرى ، وضع بيلينسكي أسس علم تاريخ الادب المادى في روسيا • وفذلك نتائج الطريق الطويل الذى اجتازه الادب الروسي في تطوره من لومونوسوف الى غوغول ومدرسته «الطبيعية»، وكشف قوانين هذا التطور ، وحدد طابعه واتجاهاته • وقد اثبت ان القانون الاساس لتطور الادب الروسي هو : نشوء وتوطد مبادىء الواقعية والشعبية • « لقد كان ادبنا يطمح دائما ـ كتب هو ، ـ نحو الاصالة ، فقد سعى ادبنا ليتحول من أدب بلاغي الى ادب طبيعي ، اصيل • ان هذا السعي الذى تميّز بالنجاحات الملحوظة والدائمة هو مايشكل معنى وروح تاريخ ادبنا » (١٥) •

ان مأثرة بيلينسكي الكبيرة كمؤرخ للادب ، هو انه أثبت اصالة وعظمة الادب الروسي وتأكيد هذا الادب للوعي الذاتي القومي في النضال ضد كافة وجوه التبعية العبودية للغرب • ان افضل ممثلي الادب الروسي كانوا دائما يعارضون التقليد الاعمى بالاستيعاب الانتقادى للقيم الحقيقية للثقافة الغربية ، ما دامت هذه ضرورية لروسيا في هذه الآونة او تلك من تاريخها • ومفندا النظريات الزائفة حول محاكاة الادب الروسي ، فان بيلينسكي اعتبر عملية تطوره بمثابة انعكاس للواقع الروسي والعالمي • لقد رأى بيلنسكي اتجاهين مختلفين للادب الروسي في الماضي الهجائي و «المثالي» البلاغي • ان الاتجاه الهجائى ، وفقا لتأكيد بيلينسكي ، قريب من الحياة الروسية ، من الواقع الروسي ، فهو يناضل ، من ناحية ، ضد التخلف والركود ، ومن ناحية اخرى ضد سوء تقدير ما هو قومي والمبالغة في تقييم ما هو اجنبي • ان النزعات الواقعية للاتجاه الهجائي كانت موجهة ضد القنانة الاقطاعية • ويتابع بيلينسكي تطور الاتجاه الهجائي من كانتيمير الى فانفيزين ـ وابعد من ذلك الى غوغول ومدرسته الطبيعية • وقد رأى بيلينسكي في هجاء كانتيمير اصول المحتوى

---

(١٥) ذات المصدر ، مج ٣ ، ص ٧٨١ •

القومي ، وسوية مع ذلك اصول الواقعية • ان الاتجاه الهجائي يناقض الاتجاه «المثالى» • وفي الادب «المثالى» ، كما اشار بيلينسكي ، وجدت افكار الوطنية الرفيعة ومهمات العصر تعبيرها • وعند افضل ممثليه ـ وخصوصا لدى لومونوسوف ، الذى اعتبره بيلينسكي مؤسس الاتجاه «المثالى» ـ كان لهذا الادب محتواه القومي ، الذى يعكس وقدة فكرة اصلاحات بطرس • وعلى اية حال ، فان التعميمات الشعرية كانت تحمل لدى كثير من ممثلي الاتجاه «المثالي» طابعا تجريديا ، فان الاشكال الاوربية الغربية كانت تقلص من مضمونه القومي • كما ان «بلاغية» هذا الاتجاه تعتبر ايضا ، جانبا سلبيا للاتجاه « المثالي » •

وقد جرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر صراع عنيف من اجل التطور التقدمي للثقافة الروسية الاصيلة ، ضد الركوع امام الغرب ، وفي سبيل ثقافة قومية روسية حقيقية •

لقد اعتبر بيلينسكي شعر بوشكين بداية الادب الفني الروسي الجديد ، الذى التحمت فيه العناصر القومية العريقة ، عضويا ، بالاشكال الجديدة ، التي اتت بها اصلاحات بطرس الى المجتمع الروسي • وقد حدد بيلينسكي مكانة بوشكين كشاعر فذ ، مدعو لان يقدم لروسيا شعرا كالفن • ان تكامل الشكل الفني المميز لشعره انما كان ، نتيجة المضمون الحقيقي العميق ـ الذى يكمن دائما في آثار بوشكين(١٦) •

وقد رأى الناقد ، محقا ، مضمون واساس شعر بوشكين في تلك الحركة الاجتماعية التي كانت مرتبطة على نحو لا ينفصم بحرب ١٨١٢ الوطنية ، والتي قادت الى انتفاضة الديسمبريين • فمن دون هذا «الواقع الشعرى» الذى كانه النهوض الوطني لعموم الشعب ، ومن دون «اثارة العقول» تلك التي كانت نموذجية بالنسبة لحركة النبلاء الثوريين الديسمبريين ، من دون ذلك فأن شعر بوشكين كان سيكون مستحيلا • ووفقا لتعريف بيلينسكي ، فان بوشكين « ليس مجرد شاعر فقط ، بل هو ممثل ايضا للوعي الذاتي الاجتماعي الذى

(١٦) ذات المصدر ، مج٢ ، ص١٥٩ •

نهض للمرة الاولى : اية مأثرة لا حد لها »[١٧] .

ان بيلينسكي ، بتحديده خصائص التفكير الفني لبوشكين ، فانه قد كشف ايضا الملامح الاساسية لواقعية بوشكين . ان شعر بوشكين ـ اكد بيلينسكي ـ يجانف كل ما هو فانتازي ، حالم ، زائف ، مثالي ، موهوم ، فقد تغلغل بكليه في اغوار الواقع وهو لا يرش وجه الحياة بالمساحيق البيضاء والحمراء ، وانما يظهرها بجمالها الحقيقي الطبيعي ، اجل ان في شعر بوشكين سماء ولكنها مشبعة دائما بالارض[١٨] .

ان التصوير الشعرى العميق ، النافذ ، للحياة الموغلة في «النثرية» مضافا الى البساطة والطبيعية والسلاسة ، وفي ذات الوقت «الاناقة الفنية» للعاطفة البشرية ، والانسانية ، و «التفاؤل الباسل» ـ تلكم هي ـ وفقا لما يقوله بيلينسكي ـ الملامح المميزة لشعر بوشكين . وبتأكيده الجازم مقولته التي تقول ان بوشكين : «كان قد وعى نفسه ، على نحو عميق ، شاعرا قوميا »[١٩] ، فان بيلينسكي وقف بقوة ، ضد محاولات تقديم بوشكين كمقلد لبايرون . وعلى الضد من ذلك ، فان بيلينسكي اعتبر « انه ليس فقط محتوى قصائد بايرون بل وروحها ايضا يجهز على كل امكانية للتماثل الجوهرى بينها وبين «اونيغين» بوشكين»[٢٠] .

لقد استطاع بيلينسكي ، بكشفه الاهمية التاريخية الكبيرة لبوشكين ، ان يضع يده ، في ذات الوقت ، على القصور التاريخي والطبقي لعقيدة الشاعر . وقد دعم التاريخ تلك النبوءة التي تنتهي بها مقالات بيلينسكي عن بوشكين : « سيأتي وقت يغدو فيه شاعرا خالدا ، وسيتشكل ويتطور الشعور الاستاتيكي بل والخلقي ايضا على هدى ابداعه »[٢١] .

وفي مقالتيه عن ليرمنتوف : «بطل عصرنا» (١٨٤٠) و «شعر م.ليرمنتوف»

---

(١٧) ذات المصدر ، مج ٣ ، ص ٤٩٦ .
(١٨) ذات المصدر ، ص ٤٠٥
(١٩) ذات المصدر ، ص ٥٠٤ .
(٢٠) ذات المصدر
(٢١) ذات المصدر ، ص ٦٤٠ .

(١٨٤١) ، حدد الناقد اصالة الشاعر ومكانته في الشعر الروسي ، منطلقا من الاختلاف بين عصرى ليرمنتوف وبوشكين • لقد عاين بيلينسكي ، في ادب مرحلة الرجعية التي ابتدأت بعد قمع انتفاضة الديسمبريين ، مرارة خيبة الامل، واللوعة على الحياة النشطة الخصبة ، وهي اللوعة التي يزيد في مضضها ان كثيرين من ابناء الجيل الجديد لم يروا ، بعد فشل الديسمبريين ، مخرجا من الواقع الذى يكتنفهم ، ولم يجدوا المتنفس لقواهم وقدراتهم • وفي هذه اللوعة على الحياة الحافلة المعقولة والحرة ، رأى الناقد «فكرة» ابداع ليرمنتوف • واستطاع بيلينسكي ان يتحسس في هذه الفكرة «الهاجس بمثال المستقبل» ، وتفهم بفطنة مدهشة الاصل الاساس للوعة ليرمنتوف • وقد وجد بيلينسكي المعنى الاجتماعي ـ التاريخي الموضوعي لشعر ليرمنتوف في الرفض الحاسم غير المهادن لمجتمع القنانة في روسيا • ان «مرارة وحقد» شعر ليرمنتوف قد ارغمت معاصرى الشاعر على التحسس بقوة بالغة بكل بؤس ودناءة الحاضر ، ودفعتهم الى النضال باسم المستقبل •

ان مكانة بالغة الاهمية في اعمال بيلينسكي النقدية الادبية يشغلها تحليله لابداع غوغول ، الذى كان بالنسبة لبيلينسكي قمة الادب المعاصر ، وتجسيدا لمبادىء الواقعية والشعبية •

وقد عزا بيلينسكي ثبات وعمق واقعية غوغول والاتجاه الغوغولي ، قبل كل شيء ، الى توسع دائرة الظواهر الحياتية المصورة ، وتوجه الادب نحو حياة «الجماهير» و «الناس العاديين» • وكما اشار الناقد ، فان دائرة الموضوعات الاجتماعية الجديدة تلتحم في ابداع غوغول ومدرسته بالحقيقة ـ « الرهيبة » للتصوير ، وبتصوير الحياة بكامل عريها « من دون ايما مثالية وآتيا ، بشكل كلي شامل ، على اهم جوانب الحياة الروسية ، فان غوغول ـ كما اكد بيلينسكي ـ قد ادخل الى الادب الروسي ، باتم شكل ممكن ، محتوى اصيلا • وقد كشف بيلينسكي المضمون التقدمي والدمقراطي للابداع الغوغولي ، وطابعه الفاضح المعادى للقنانة • وقد اسمي بيلينسكي غوغول ، الكاتب الاول لروسيا ، بعد

ظهور مؤلفاته «آرابسك» و «ميرغورود»[٢٢] • وفي نضاله من اجل عوغـــول ومدرسة غوغول «الطبيعية» ، فان بيلينسكي وجـــه الادب الروسي في طريق الهجاء الواقعي ، الذى لم يستطع ان يكونه غير الهجاء الاجتماعي • وكـــان معسكر خصوم الاتجاه الغوغولى ، الذى انخرط بيلينسكي في صراع حـــسم ضده ، يوحد ممثلي الاتجاهـــات الادبيـــة المختلفـــة : مقلدي الكلاسيكية ، والرومانتيكيين المتأخرين ، والرجعيين سيئي الصيت بزعامة بولغارين • وكـان الخصوم الالداء للاتجاه الغوغولي هم المتعصبون للسلافية الـــذين حاولوا ان يبعدوا غوغول عن «المدرسة الطبيعية» ، مفضين بابداعه الى افكار « التطهـــير المعنوى » • كما ان الرجعيين (بولغارين ، وسينكوفسكي ، وشيفيريوف وغيرهم) قد اتهموا الاتجاه الغوغولي ، الذى طرح بقوة مسألة نظام القنانة ، وعـــدم المساواة الاجتماعية ، واللاعدالة الاجتماعية ، بالافتراء على الحياة الروســـيه والشعب الروسي • وفي محاولتهم اضعاف القوة الاجتماعية الفضحة للواقعيـة الانتقادية ، فانهم سعوا لان يثبتوا كما لو ان الاتجاه الغوغولي لم تكن له جذور لا في الحياة الروسية ولا في الادب الروسي ، وكأنه ظهر مجرد ثمرة لتأثير الادب الاوربي الغربي •

وقد قام بيلينسكي برد حاسم على الهجمات على غوغول و « المدرســـة الطبيعية » واظهر بيلينسكي ، بمنتهى الجلاء ، في جملة مقالاته في الاربعيـات، ان الاتجاه الجديد عميق الشعبية والوطنية (بضع كلمات عن قصيدة غوغول : مغامرة تشيتشكوف او «الارواح الميتة » ١٨٤٢) ، ايضاح لايضـــاح بمناسبة قصيدة غوغول «الارواح الميتة» (١٨٤٢ وغيرها) • واثبت اصالة واقعية عوغول وتفردهـــا القومي العميق • وقـــد كشف الصـــراع حـــول الاتجاه الغوغولي الخلافات العميقة بين المعسكر الدمقراطي الثورى ومعسكر اللبراليين المحافظين في الادب الروسي • وبمساندته ودفاعه عن شرعية وعظم جدوى المبدأ «الرافض» النقدى الفاضح كمبدأ رئيس واساس في الادب المعاصر ، فانه ناضل من اجـل الاسهام الفعال للادب في تحرير الشعب •

---

(٢٢) مقالته : («عن القصة الروسية وقصص السيد غوغول» ، ١٨٣٥) •

ان بيلينسكي ، في رسالته الى غوغول بتاريخ ٣ تموز ١٨٤٧ ، قد فيم ، عاكسا في ذلك النزعات الثورية للفلاحين الاقنان ، كتاب غوغول الشهير «مواضع مختارة من المراسلات مع الاصدقاء» ، كخيانة لقضية الشعب ، وعرض للنقد المدمر افكار الكتاب الرجعية الاجتمعية • وصاغ بيلينسكي ، في الرسالة الى غوغول ، مهام الادب الروسي الاساسية الملحة • وطبقا لذلك ، فان مهمة الادب الاساسية ـ هي التعبير عن مصالح الشعب والدفاع عنها • كما ان فضح دناءة النظام الاجتماعي السائد ، وتربية مشاعر الكرامة الانسانية في الشعب ـ هما المهمتان الآنيتان اللتان وضعهما بيلينسكي امام الادب الروسي • وقد تركت دعوة بيلينسكي المتحمسة ونداؤه الى الكتاب بتصوير الحياة ومصالح الشعب تأثيرها البالغ على الادب الروسي • فحين كن بيلينسكي في قيد الحياة فان عددا من الادباء الواقعيين الروس قد عالجوا الموضوعة الفلاحية ، ومن هؤلاء تورغينيف ، وغريغوروفيج ، ونكراسوف • وقد قيم بيلينسكي آثار غيرتسن ، وكولتسوف ، والابداعات المبكرة لدوستويفسكي ، مشيرا دائما الى الجوانب السلبية فيها • وقد ناضل بيلينسكي من اجل ان يزيح «الموجيك» و «بسطاء» المدينة السيد النبيل من الادب ، وباختصار فان بيلينسكي كان مناضلا كبيرا من اجل الفن الشعبي في روسيا ، ومن اجل تحويل الادب الى قضية شعبية عامة • واوصى الادب الروسي بمفهوم رفيع عن الواجب الاجتماعي للفنان وعن دور الكاتب في حياة البلاد «في طريق الوعي ، والتطور ، والتقدم» • وارسى الاساس الوطيد لتقاليد النضال من اجل فكرية وواقعية الادب •

٥ ـ نقده للادب العالمي

كان نقد بيلينسكي موجها ليس فقط نحو الادب الروسي ، بل والادب الاوربي الغربي ايضا ، وكانت نظرات بيلينسكي الى الادب العالمي مشبعة بمشاعر الكرامة الوطنية ومفعمة بالاحترام نحو الشعوب الاخرى وثقافتها • وقد قيم اثار الادب العالمي من واقع واقعية وفكرية وشعبية الفن ، مطبقا عليه ذات معايير الفنية ، التى كان قد صاغها على اساس دراسة ابداع كتاب روسيا ، منتقدا البرجوازية الغربية بشدة •

ولبيلينسكي افكار عميقة عن شكسبير كان لها مغزاها العلمي ، فقد قيم الناقد شكسبير تقييما رفيعا كواقعي ، مقابلا بوشكين وشكسبير بشعراء رومانتيكيين من امثال شيلر • واذا كان بيلينسكي قد وضع ، في وقت من الاوقت ، غوته الى جانب بوشكين وشكسبير ، فانه في اعوام النضوج الفكرى وجد في ابداع غوته شيئا من المحدودية وضيق الافق • وفي تفسير ذلك ، لاحظ الناقد ان «البؤس الاجتماعي» للواقع الالماني قد قلص من القيمة الفنية لابداع الكتاب الالمان الكبار كشيلر وغوته • ومع ذلك فان الناقد ، بانتقاده جوانب الضعف لدى هذين الكاتبين ، لم يغفل عن اهميتها العالمية ومكانتهما في الادب الأوربى • وقد شجب بيلينسكي المهادنة المميزة لكثير من كتاب اوربا الغربية ولا مبالاتهم بالنضال من اجل تحرير البشرية •

ان اكثرية الكتاب الاوربيين الغربيين في القرن التاسع عشر ، لم يتخطوا في ابداعهم أطر المجتمع البرجوازى ، ولم يقابلوه بالمثال الاجتماعي الجديد ، وكانوا ينظرون الى الاشياء بعيني البرجوازي العادى القانط • وكان واضحا لبيلينسكي القصور البرجوازي الصغير لليبراليين الرومانتيكيين مثل فكتور هوجو واى • سيو (مقالته عن كتاب اى•سيو «خفايا باريس» ، ١٨٤٤) • كما ان معارضتهم العقيمة لم تطمن الناقد الثوري الروسي • وفي أحكامه حول ادب الغرب البرجوازى المعاصر له ، اعتبر بيلينسكي ان سلطة «كيس النقود» ابتدأت تتحكم في عمل الكاتب • واعتبر بيلينسكي واجب الناقد حماية الادب الروسي من تأثير الادب البرجوازى الغربي المعادى للدمقراطية الثورية ، وخصوصا من الركض وراء التأثيرات الخارجية والاثارة ، وانتهاك الحقيقة الفنية ، ومن ايما زيف فني • وعاين بيلينسكي الجوانب السلبية في ابداع والترسكوت ، وديكنز ، وعدد من الادباء البرجوازيين الآخرين • والى جانب ذلك ، فانه قيم عاليا ابداع ادباء اوربيين غربيين طليعيين مثل بيرناجه ، وجورج صاند ، وهايني ، دوى في تآليفهم التعاطف مع المظلومين •

ويعرب بيلينسكي في مؤلفاته (مراجعاته النقدية لـ «خفايا باريس» وغيرها) عن الامل بانه في اوربا الغربية سيبدع ادب شعبي حقيقى ، ينهض للدفاع عن

الجماهير الشعبية المفعمة حماسا من اجل التغير الثورى •

٦ ـ مغزى نقد بيلينسكي

ان عبقرية بيلينسكي الابداعية قد لاحمت بين الفكرية العاليـــة والعمق الفلسفي ، والشعور الاستيكي للقوة الاستثنائية والموهبة الادبية الضخمـــة ، المعممة للفكر العلمي والفانتازيا الشعرية ، وما من شك في ان التحام كل هذه الصفات معا قد جعل الناقد مشاركا في العملية الابداعية للادباء الـــذين عرض بيلينسكي مؤلفاتهم للتحليل النقدى • ان الصلة الوثقى بين بيلينسكي والحيـاة قد حولت ريشة الناقد ، احيانا الى سوط للهجاء (فان عديدا من الصفحات فـي المقالة التاسعة عن بوشكين ، المكرسة لوضـــع المرأة وبيئة الملاكين ، وكراس «المتحذلق» ، ومقالته عن «عربة» سولوغوب ـ انما هي هجاء لاذع للمتعصبين للسلافية) • ان بيلينسكي ، باعتباره الناقد ـ المنبر ، والمفكر الثورى والمناضل قد اخرج النقد الادبي ، للمرة الاولى في روسيا ، الى المنطلق الرحب للحيـــاة الاجتماعية والنضال الاجتماعي ـ السياسى • وكان بيلينسكي يقف من النتاجات الادبية موقفه من الظواهر الاجتماعية ، موضحا دوره الاجتماعي واهميتها في حيـــاة المجتمع •

ان نقد بيلينسكي ـ انما هو نموذج باهر للنقد الفكرى ـ الفني • فانه لم يقتصر على تسليح القارىء بالمبادىء الاستاتيكية في تقييم ابداع الفنان وفهمـــه العميق ، بل تجاوز ذلك الى تربية القراء استاتيكيا ، مساعدا الكتاب في ايجـــاد طريق ابداعي سليم • وبشعور من الحب العميق كان بيلينسكي يلاحظ كـل ما هو موهوب حقا في الادب ، كاشفا مضمونه ، ومثقفا القارىء به • وقد حدد غوغول وليرمنتوف وكولتسوف وغونجاروف وتورغينيف كمواهب كبيرة ، منذ مؤلفاتهم الاولى •

ان الملامح المميزة لبيلينسكي الناقد هي المبدئيـــة الرفيعة ، والعـــداء واللامهادنة تجاه الاحكام التوفيقية وانصاف الحلول • وكان بيلينسكي يعارض

النقد المراوغ الذى يتجنب حدة الاحكام ، بتكريس لا حد له للحقيقة ، نكريس لا يعرف ايما دوافع خارجية غريبة ، او ايما تنازلات وتوفيقات •

لقد كان نقد بيلينسكي وسيبقى سلاحا حادا ورهيبا ضد كفة محـــاولات تقويض علاقة الفن بالواقع وبالافكار الطليعية للعصـــر • ولاشك ان لنقـــد بيلينسكي اهميته الكبيرة ، ومغزاه الثورى بالنسبة للنقد العربي المعاصـــــر ، وبالنسبة لكافة الادباء العرب السائرين على نهج الواقعية ، اذ ان بامـــكانهم ان يتعلموا ويفيدوا الكثير من مدرسة بيلينسكي في النقد الادبي الواقعي •